٧ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمـــــة

بقيت هنات مما اقترف الكماليون لا أبغي إحصاءها ، بل أكتفي بواحدة منها هي : لبس القبّعة . والأمر في نفسه هيّن . ولكل أمة أن تتخذ من اللباس ما يلائم هواها ، ويواتي حاجاتها ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ؛ ولكن الكماليين اتخذوا القبّعة شعارة لهم سيراً على خطتهم في تقليد الأوربيين وإتماماً لسنتهم في محاكاتهم ، وإمعاناً في هجر ما يميزهم منهم فيحرمهم شرف الفناء فيهم . ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أن لا مناص لهم من لبس القبعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان لا بدعة يمليها التقليد لكان لهم في العقل مساغ ، وفي العذر متّسع ، ولكان عليهم مع هذا أن يفهموا الأمة بالدليل ، ويجادلوها بالحسنى ، حتى ترى أن القبعة لباس اختاروه لأنفسهم ، لا ذلة ضربت على رءوسهم ، فقد عاشت الأمة التركية أحقاباً ترى هذه القبعة شعار مخالفي دينها ، ولباس أعداء تاريخها . فلما أكره التركيّ في ثورة التقليد أن يضعها على رأسه أحسّها ذلة طأطأ لها الرأس الأبيّ ، وعاراً ذلت له النفس الكريمة . وحاولت رءوس أن تنبذها فقطعت ، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت . وإنك لتبصر رأس التركيّ الأسنيد ، وكأنه حمل من الذلّ ملء الأرض والتاريخ ، وسيم من الخسف ما تنوء به عزيمته وعزة آبائه . وليس هيّنا على أمة أن تسام هذه الخطة ، وتحمل على هذا العنت . وإن يكن بعض الترك لبس القبعة عزاً وفخاراً ، فقد لبسها معظمهم خزياً وشناراً ، تنطق بذلك أساريرهم وتبين عنه عيونهم ؛ ولو أن القوم ، إذ رأوا رأيهم ، أخذوا به النشء الصغار ، وخيّروا فيه الكبار ، لهان الأمر بعض الهوان . تصور الشيخ ابن السبعين أو الحِميّ ابن التسعين قد شابت لحيته في الاسلام ، ونبتت نفسه وترعرعت ثم ذبلت في كره القبعة ، يُكره على أن يختم حياته بها ، ويتوج شيبته بسوادها . وانظر ذلك الشيخ الجليل الذي كان يدرس العربية في جامعة استانبول فقيل له : البس القبعة وانزع العمامة . قال : أعفوني وعدّوني من رجال الدين . قالوا : فاخرج من الجامعة إن لم يكن لك بدّ من عمامتك . فخرج منها وخلفه فيها معلم ألمانيّ ، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعلّم الطلبة ، وكفى الله الطلبة عمامة الشيخ وعلمها ، وأسعدهم بقبعة الألماني وبركتها

* * *

وقد جاءت الأنباء بأن الايرانيين حذوا حذو الترك في لبس القبعة ، ولم يقنعوا بالبهلوية «التي ابتدعوها» فهنيئاً لهم تقليد المقلّدين

فلو كان عبد الله مولى هجوتُه ولكنّ عبد الله مولى موالياً

وأعجب من هذا وأشأم صيحة سمعناها من العراق تدعو إلى الاقتداء بالفرس والترك فيما صنعوا . وهي دعوة إلى هذا التقليد الأشأم الذي يبدأ في ناحية فيسري سريان العلة في جميع النواحي ؛ إذا ضل العرب في الضالين ، وتهافتوا مع المتهافتين ، فبأيّ وزر تعتصم الحضارة الاسلامية ، وبأي ملاذ يلوذ التاريخ الاسلامي ؟ وكيف تثبت الأمم الاسلامية في هذه الزعازع إذا مال العرب وهم العماد ، وزُلزلوا وهم الأوتاد ؟ كيف وهم الحلماء إذا طاشت الأحلام ، والراسخون إذا زالت الأقدام ؟

ما أحسب العراقيين يستجيبون هذه الدعوة ، فيسنوا للعرب أقبح سنّة ، أو يستبدوا دونهم برأي ، وهم الدعاة إلى الأخوّة العربية ، الغلاة في الحماسة القومية ؛ الأمر ، كما قلت ، هين إذا أدت اليه الروية والاختبار ، فليجتمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة في مؤتمر عربي أو اسلامي ، ولينظروا فيما يلائم كل اقليم من الأزياء ، وما يوافق المدنية الحاضرة من ألبسة ، ثم ليختاروا على بينة . وليكن ما يختارونه موافقاً لأزياء أوربا أو الشرق ، أو مخالفاً لكل أزياء العالم ، فلا حرج في هذا ولا بأس به

لقد لبس العراقيون منذ سنين عمارة سموها الفيصلية جمعت مزايا القبعة الأوربية والعقال العربي ، يسهل خلعها ووضعها ، وتحمي الرأس والرقبة والوجه عند الحاجة ، وهج الشمس ولفح الهجير ، وتفرغ على رأس العربي جمالاً وجلالاً ، وتتوّجه بمجد الماضي والحاضر . فلماذا لا يدعى إلى تعميمها ، ويحتج لها بمزاياها ؟ ألأنها اختراع لم تلده قرائح الأوربيين ، ولباس لم تقرّه سننهم ؟ إن لم يكن بد من شهادة أوربية فسلوا أهل أوربا العالمين بأحوال بلادكم فسيقولون إنها خير لكم من القبعة ، وأجدى

عليكم منها . ليت شعري إلام تدعو إلى اليقظة فتنامون ، وإلى الحذر فتستلمون ، وإلى العزة فتهنون ، وإلى الاستقلال فتتبعون ، وإلى الاجتهاد فتتقلدون ؟

كفى يا قوم بالزمان واعظاً ، وبالتجارب هادياً . إنكم في مهب العواصف ، ومفترق الطرق ، فخذوا حذركم ، وتهوا عقولكم واشحذوا عزائمكم ، ولا تصدروا إلا عن بينة ، ولا تقولوا إلا عن روية ، فانه الحياة أو الموت ، والبقاء أو الفناء

الخاتمة

رأى القراء مما قدمت أن الترك الكماليين لم يأتوا بجديد في هذه « النهضة التركية الأخيرة » ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا . أحسنوا بما أخذوا بأسباب الحياة فاجتهدوا في تعمير بلادهم وإسعاد أهلها ، وتوسلوا لمعارك الحياة بعددها فدربوا الجيوش واستكثروا من السلاح وجعلوا أنفسهم سادة بلادهم . وأساءوا بما تبعوا أهل أوربا في امور هي من نُفايات الحضارة ، وحثالات المدنية ، وبما هجروا من أجل ذلك كثيراً من سنن دينهم القويم ، وأخلاقهم الكريمة ، وتاريخهم المجيد . وأذكر في هذه الخاتمة ما قاله في أوربا بعض أولي الرأي منذ سنين : قال : « كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا ! معذرة ، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم ، وجالدوكم ما استطاعوا ، ودافعوكم جهد طاقتهم ، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة . وها نحن أولاء نعترف بأن الخير في اتباعكم ، والشر في مخالفتكم ، وإن آباءنا أثموا إذ منعوا عنا خيركم ، فاقبلوا الأبناء في جماعتكم ، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم . ها نحن أولاء نحني رؤوسنا إكباراً لكم ، ونلوم أجدادنا من أجلكم . »

وبعد . فهذه الكلمات التي كتبتها لا تفي بهذا الموضوع العظيم ، ولا بد أن يتعاون الكتاب والمفكرون في هذه السبيل حتى يجلوا عن الأمة هذه التمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة . فانما نحن في فتن لا عذر فيها لمقصر ولا حجة فيها لمتهاون

وما أردت بما كتبت إلا وجه الله ، والله هو الحق المبين . وهو حسبنا ونعم الوكيل « إن أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

عبد الوهاب عزام

المدنية الأمريكية

كما يصفها أندريه موروا

للأستاذ محمد روحي فيصل

أندريه موروا كاتب فرنسي معاصر ، وروائي واسع الشهرة ؛ وهو الآن في الخمسين من عمره ، يكتب كثيراً ويعدل كثيراً ، ولعله « الحركة الدائمة » التي ينشدها علماء الطبيعة ، والغريب أن انتاج موروا على كثرته خصب عميق ، فيه ملاحظات نفسية قيمة ، وفيه وصف بارع طريف ، وفيه حلاوة قل أن تجدها عند غيره من الكتاب والروائيين

قام بسياحة إلى أمريكا منذ حين ، زار في خلالها مدن الشواطئ الشرقية ، ورأى آثارها ، وحاضر في جامعاتها ، وفهم في شهرين حقيقة المدنية الأمريكية ومظاهرها الصحيحة ، ثم عاد إلى وطنه وألقى محاضرة قيمة طويلة نقتطف منها ما يلي :

« وصلت باخرتنا إلى نيويورك في الصباح الباكر فراعتني المدينة العظيمة الناشئة ، وطغى على شعوري غريب جميل . والحق أن مرفأ نيويورك منظر لا أعرف أبهج منه ولا أروع ولا آخذ بلب الرائي المعنن ! بقينا على الماء نسير خمسة أيام ثم طلعت علينا نيويورك بوجهها الضخم وهيكلها العريض كما يطلع الجبل الشاهق على المسافر العاني بعد طول السير وطي الأميال . وجُلنا في الشوارع نسير على غير هدى ، فاذا المباني ضخمة بالغة الضخامة ، متينة بالغة المتانة ، تشق الفضاء طولاً وعرضاً واتساعاً . ونلاحظ أن الضخامة مظهر من مظاهر الجمال ، وأعني أن جمال الشيء إنما يرجع أحياناً إلى ضخامته الناشزة ؛ أرأيت إلى أهرام مصر أو قصر (بيتي) كيف أن علوها خلع عليهما جمالاً خاصاً على جمال الفن والهندسة »

« والأمريكيون شعب يعمل في جنون ، فلا يريح جسده ولا يريح عقله ، وإنما يجهدهما في التجارة والصناعة والاختراع ؛ وهذه الظاهرة هي أقوى ما يلمح العابر السائح من الصور . ويل للمحاضر في أمريكا ! إنه يخضع للحركة الأمريكية الطاغية ، ففي الصباح يلقي محاضرة ، وعند الظهر يرأس حفلة خطابية ، ثم يحاضر في نادي النساء ، وفي الساعة الخامسة يقول كلمة في جامعة كولمبيا أو الاتحاد الفرنسي ؛ وأني لرجل يجد برنامجاً طويلاً سريعاً يبتدئ من الصباح وينتهي في منتصف الليل ! »